

ويحولها إلى سلعة للكسب كأي سلعة أخرى ، ويعتمد على المبالغات اللفظية والبلاغية ، ويفتقر إلى الصدق الفني والنفسي ، وكلاهما مرتبط بالآخر ، ومن ثم يفتقد أهم عناصر البقاء والتأثير في القارىء . .

هذه النظرة إذا صدقت على نسبة كبيرة من شعر المديح ، فإنها لا تصدق عليه كله ، فهو لا يخلو من نماذج جيدة لو درست في إطار الأوضاع الاجتماعية المحيطة ، لوضح كيف استطاع الشاعر العربي القديم أن يبدع في هذا الفن العسير ، ويقدم إلى جوار المدح ، ومن خلاله ، صورا صادقة للحياة ، ونظرات حكيمة نافذة إلى حقائقها ، ولم يقتصر على مجرد ذكر مناقب الممدوح . .

فقد أدرك ذلك الشاعر بحسه الدقيق مدى ضيق النفوس بكلمات الشناء والمدح ، فحرص على أن يستهل قصيدة المدح بالبكاء على الأطلال أو الغزل ، أو وصف الصيد والطراد ، أو تصوير رحلته الطويلة إلى مقر الممدوح . . وكلها أغراض تميل إليها النفوس ، وتتيح للشاعر فرصة الإجابة والإبداع . . حتى إذا اطمأن إلى استثنائه باهتمام سامعيه انتقل برشاقة وبراعة إلى موضوعه الأصلي ، وهو مدح هذا الأمير أو ذاك الشرى ليفوز بعطائه ، وإلا فمن أين يعيش . . والمطابع وأجهزة الإعلام لم تكن قد عرفت بعد ؟ . . هذا إذا تصورنا أن هذه الأجهزة قادرة حتى اليوم على أن تكفل الحياة الكريمة لشاعر حر الكلمة لا يعبر إلا عما تمجيس به نفسه ، ولا ينافق حاكما أو نظاما !!

وإذا كان بعض شعراء المديح قد هبطوا بفنهم إلى مستوى قريب من التسول فإن بعضهم الآخر قد عرف كيف يحافظ على كرامته . . بل منهم من بالغ في ذلك ، وعرف كيف يسمو بموهبته ، ويدفع الحكام والأمراء إلى مطاردته لينشدهم قصيدة مدح ، تعلى شأنهم ، وتثبت حكمهم . . في زمن لم